الفصل الثالث
أسفار الديانة الزرادشتية

سنمهد لهذا الفصل بفقرتين: نعرض في أولاهما لشخصية زرادشت واختلاف الآراء بشأنها؛ وفي الأخرى لتاريخ حياته ورسالته وانتشار دينه.

ثم نقف بقية فقرات هذا الفصل على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية (أسفار الأبستاق) وشروحها وما تقرره من عقائد وعبادات وشرائع وأخلاق.

شخصية زرادشت

يطلق العرب عليه اسم «زرادشت»، وهو اسمه في الفارسية الحديثة. وكان اسمه في الفارسية القديمة (لغة الأسفار المقدسة المسماة «ابستاق») زراتسترا Zarathoustra أو سبيتاما زراتسترا Siptama Zaratoustra (والراجح أن سبيتاما هو اسم أحد أجداده). ويسمى في الفهلوية (الفارسية في مراحلها المتوسطة) زراتشت. ويسميه المسعودي في كتابه «مروج الذهب» وابن النديم في كتابه «الفهرست» زرادشت بن سبتمان. ويسميه الفرنجة زوروآستر Zoroaster أخذا من اسمه في اللاتينية. ـ ويذكر «الأبستاق» (مجموعة الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية التي سنتكلم عليها في الفقرة الثالثة) أن أباه كان يسمى بوراشاسب Pourashaspe وأن أُمّه كانت تسمى دغدهوا DoughdoHuva وتسمى في الفهلوية دغدافو Doghdavo وفي الفارسية الحديثة دغدويه.

وقد اختلف الباحثون في شخصية زرادشت، وانقسموا في صددها إلى ثلاث فرق:

1 ـ ففريق ينكر وجوده، ويقرر أنه شخصية أسطورية خيالية، قد نسجت حولها طائفة من العقائد والتقاليد والشرائع والعبادات التي كان يسير عليها الإيرانيون.

ولا يقدم هذا الفريق بين يدي مذهبه دليلاً يعتد به، بل لقد دلت الكشوف الحديثة على بطلان هذا الرأي، ولم يعد له وزن ما بين المحدثين من الباحثين.

2 ـ فريق يرى أنه شخصية حقيقية، وأنه هو إبراهيم الخليل الذي ورد ذكره في التوراة والقرآن، وأن أسفار «الأبستاق» هي صحف إبراهيم التي تحدث عنها القرآن الكريم[1].

وقد ساد هذا الرأي لدى كثير من الزرادشتيِّين خاصتهم وعامتهم. فالأسدي في كتابه «لغت فرس» يقول «الأبستاق تفسير الزند وكان الزند صحف إبراهيم»[2]. ويقول صاحب «برهان قاطع»: «كان إبراهيم زرادشت يدعي أن الزند نزلَ عليه من السماء، ويقول بعضهم إنه صحف إبراهيم»[3].

ولعل التشابه بين ما تذكره الكتب المقدسة عن حياة إبراهيم وما تذكره التراجم والأساطير الفارسية عن حياة زرادشت، وخاصة ما يتعلق باتجاه كليهما إلى التأمل في كواكب السماء وملاحظة بزوغها وأفولها والانتهاء من هذا التأمل وهذه الملاحظة إلى أن كائنات هذا شأنها لا يمكن أن تكون آلهة[4]، وما يتعلق بمحاربة كليهما لما كان يعكف عليه

---

(1) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (الأعلى: 18 ـ 19).

(2) يجعل الأسدي الأبستاق تفسيراً للزند، مع أن الأمر على العكس من ذلك، فالزند هو شرح الأبستاق كما سيأتي بيان ذلك في الفقرتين الثالثة والرابعة من هذا الفصل.

(3) يخلط صاحب هذا الكتاب بين «الأبستاق» و«الزند» فالكتاب الأصلي الذي يزعم الزرادشتيون أنه نزل من السماء هو شرح للأبستاق كما سيأتي بيان ذلك. انظر الدكتور أمين عبد المجيد: «القصة في الأدب الفارسي» 36، 37.

(4) أشار القرآن الكريم إلى هذه التأملات والملاحظات إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأنعام: 75 ـ 78).

قومه من عبادة الكواكب وما يمثلها ويرمز إليها من أصنام[1]، وما يتعلق بإلقاء كليهما في النار وجعلها برداً وسلاماً عليه[2]، لعل التشابه بينهما في هذه الأمور وما إليها هو الذي دعا هذا الفريق إلى القول بأن زرادشت هو إبراهيم الخليل وأن الأبستاق هو صحف إبراهيم.

وليس لهذا الرأي أي سند يعتد به، بل إن أدلة كثيرة تتضافر على القطع ببطلانه. فمن ذلك أن زرادشت قد ظهر في أصح الروايات في القرن السابع قبل الميلاد، على حين أن إبراهيم الخليل كان ظهوره حولي القرن السابع عشر قبل الميلاد أي قبل زرادشت بنحو عشرة قرون. ومن ذلك أن إبراهيم الخليل قد نشأ في بلدة أور ببلاد الكلدان وأنه سامي الجنس، على حين أن زرادشت قد نشأ بأذربيجان إحدى مقاطعات ميديا في بلاد إيران وأنه آري الجنس، ومن ذلك أن القرآن يحدثنا عن رحلة إبراهيم إلى مكة وإسكانه فيها ابنه إسماعيل وأمه هاجر وبنائه للكعبة، بينما يدل تاريخ زرادشت على أنه لم يرحل إلى بلاد الحجاز ولم تكن له صلة ما بمكة ولا بالبيت الحرام.

3 ـ والرأي الصحيح هو ما يذهب إليه الفريق الثالث الذي يقرر أن زرادشت شخصية حقيقية وأنه غير إبراهيم الخليل. وقد اختلف هؤلاء في تحديد جنسيته وتحديد الزمن والمكان اللذين ظهر فيهما. وأرجح الآراء في هذا الصدد أنه إيراني الجنس، وأنه ولد في منتصف القرن السابع قبل الميلاد حوالي سنة 660 قبل الميلاد بأذربيجان إحدى

---

(1) أشار القرآن الكريم إلى محاربة إبراهيم لعبادة الأصنام في عدة سور منها قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ...﴾ (الأنبياء: 51 ـ 54) ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنبياء: 66 ـ 67) ومنها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ...﴾ (الصافات 85 ـ 86) ومنها قوله تعالى: في سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: 74).

(2) ذكر القرآن الكريم قصة إلقاء إبراهيم في النار وجعلها برداً وسلاماً عليه في سورة الأنبياء إذ يقول: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ (الصافات 97، 98).

مقاطعات ميديا على مقربة من بحيرة أورميا، وأنه قد هاجر منها إلى بختر في شرقي إيران في مرحلة شبابه، وأنه مات قتيلاً في بيت من بيوت النار في بلخ حوالي سنة 583 عندما أغار عليها الطورانيون. وقد اعتمد أصحاب هذا الرأي على أدلة تاريخية كثيرة يكاد بعضها يصل إلى درجة اليقين. وفي مقدمة المنتصرين لهذا الرأي من العلماء المحدثين دار ميستيتير وهوارت من الفرنسيين وويست الإنجليزي وجاكسون الأمريكي[1] Darmesteter, Huart, West, Jackson.

ولا يعتد أحد من العلماء الباحثين في الوقت الحاضر بما كان يزعمه اليهود ـ حسب ما يروي عنهم الطبري وابن الأثير وغيرهما من مؤرخي العرب ـ من أن زرادشت كان من أهل فلسطين، وكان من خاصة الخدم لبعض تلاميذ أرمياء النبي، فخانه وكذب عليه، فأصيب بالبرص، وفر من فلسطين، ولحق ببلاد أذربيجان، وشرع بها دينه.

حياته ورسالته وانتشار دينه

الراجح أن زرادشت ولد حوالي سنة 660 قبل الميلاد بأذربيجان إحدى مقاطعات ميديا على مقربة من بحيرة أورميا في القسم الغربي من بلاد فارس كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويروى عن مولده وعن الفترة السابقة لمولده قصص وأساطير كثيرة يشبه بعضها ما يقوله المسيحيون عن المسيح وأن روح الله قد حلت فيه أو أنه أحد الأقانيم المكونة للإله، ويشبه بعضها ما حدث لإبراهيم الخليل من إلقائه في النار بدون أن يمسه منها ضرر، ويقص بعضها نبأ حوادث كونية وفلكية وحيوانية غريبة كانت إرهاصاً لبعثته وبشيراً بقرب ظهوره. فمن ذلك ما ترويه أساطير الإيرانيين من أن ثورا قد ظهر قبل مولده وتكلم منبئاً بقرب ظهور منقذ للعالم من سيطرة قوى البشر. وتنسب أساطير أخرى هذه البشارة إلى ثورين اثنين لا إلى ثور واحد. ومن ذلك ما شاع اعتقاده عند قدامى الإيرانيين من أن الله قد نفخ في رحم أمه من روحه، فتقمصت روح الله جسد زرادشت، فنشأ جامعاً بين اللاهوت والناسوت، على نحو ما يعتقده المسيحيون في

(1) انظر حامد عبد القادر: «زرادشت الحكيم» 28 ـ 31.

المسيح، وأنه لما ولد أحاط بالدار التي ولد بها نور قدسي وهَّاج، وهبط من السماء نجم عظيم ودنا من الأرض وأعلن النبأ السار، وظهر في عرض الأفق في السماء كوكب عظيم ملأ ضياؤه جميع أنحاء الفضاء، وأنه قد ضحك عقب ولادته بصوت مرتفع سمعه جميع الحاضرين. وكان المنجمون قد أخبروا حاكم أذربيجان أن نبياً سيظهر قريباً وأنه سيتم على يديه إلغاء دين الفرس وإبطال السحر وأنه ستبدو منه أمور خارقة للعادة عقب ولادته، ولما سمع الحاكم بولادة زرادشت وأنه ضَحِكَ عقب ولادته ذهب في طلبه إلى دار أبيه بوراشاسب وهم بقتله بخنجره، ولكن يده قد جمدت ولم تستطع تحريك الخنجر، فأشار عليه السحرة بأن يبني بنياناً كبيراً ويملأه وقوداً ويشعل فيه النار ويلقي فيه زرادشت، فأنفذ ما أشاروا به، ولكن النار لم تحرق الطفل، بل كانت برداً وسلاماً عليه، وأخذته سنة من النوم فنام في وسط الرماد، وما برح نائماً حتى جاءت أمه مستخفية على حين غفلة من الناس فحملته إلى دارها سليماً[1].

ولما بلغ زرادشت العشرين من عمره أحس رغبة شديدة في الوقوف على حقيقة الكون وخالقه ومحتويات الطبيعة وما وراءها. فآثر العزلة والرياضة الروحية والتأمل العميق في ملكوت السموات والأرض، لتصفو روحه، ويوقن بقدرة الإله وتطهُرُ نفسه من جميع عقائد الشرك والسحر ونسبة الأفعال للكواكب والمخلوقات، وتتهيأ لتلقي الإشراق والاهتداء إلى معرفة الحق. وأخذ يطوف بمختلف بلاد إيران لتزداد تجاربه وتزداد معرفته بالمجتمعات وشؤون حياتها. وقد استغرقت هذه المرحلة عشر سنين، فبلغ في نهايتها الثلاثين من عمره، وكان حينئذ قد وصل إلى أرقى درجات الصفاء الروحي.

وتروي أسفار الديانة الزرادشتية أنه حينما بلغ هذه المرحلة نزل عليه الوحي من السماء. فبينما هو واقف على شاطئ نهر ديتي Diti في مقاطعة أذربيجان إذا به يرى كائناً مضيئاً يهبط من السماء، وكأنه عمود من نور، حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان، ويحمل في يده عصا من اللهب، ولما دنا منه أنبأه أنه فاهومانا Vahumana كبير الملائكة أرسله الله إليه ليعرج به إلى الملأ الأعلى ليحظى بشرف المثول أمام رب العالمين «أهورا مزدا».

---

(1) حامد عبد القادر، زرادشت الحكيم 36 ـ 39.

وهنالك أشرقت عليه معرفة الحق، وتكشَّفت له أسرار الكون، ورفعت عن بصره الحجب، ووقف على ما كان يسعى للوقوف عليه وأصبح نبياً مرسلاً، وأوحى الله إليه بتفاصيل دين كامل يبلغه الخلق، وبكتاب مقدس هو «الأبستاق» الذي سنتكلم عليه في الفقرة الثالثة من هذا الفصل.

وقضى زرادشت عشر سنين يطوف فيها ببلاد إيران، ويبلِّغ الناس رسالته، بدون أن يجد مستجيباً لما يدعو إليه. وقد قاسى في أثناء ذلك من المتاعب والأهوال ما لا يصبر على احتمال مثله إلا أولو العزم من الرسل. ولما لم يظفر في بلاده بأتباع يدخلون في دينه رحل إلى بلاد الطورانيين، فلم يجد منهم خيراً مما وجده من أهله، بل لقد كانوا شراً عليه من أهله، فقد لقى منهم عنتا وأذىً شديدين، بل لقد تعرض للهلاك أكثر من مرة.

ولم يودعه أهورا مزدا ولم يحرمه عنايته في هذه المدة، بل ظل يؤيده ويقوي عزيمته ويربط على قلبه، ويثبت عقيدته بالوحي المتوالي، ويعده بأن الآخرة ستكون خيراً له من الأولى وأن ربه سوف يعطيه حتى يرضى. وقد نزل عليه الوحي في أثناء هذه السنين العشر سبع مرات ظهر له فيها الملائكة الستة كبار الملائكة.

وفي السنة الحادية عشرة بعد نبوته أي حينما جاوز الأربعين من عمره بدت في أفقه طلائع النجاح، فآمن به ابن عمه متيوماه Metyomah، وانتصر لدينه، فشد الله به أزره، وقوى به دعوته.

ومضت سنتان بعد ذلك لم يؤمن به في أثنائهما أحد، وإن كانتْ محتويات رسالته قد انتشرت وأصبحت معروفة لكثير من الناس.

وبعد أن بلغ الثانية والأربعين أوحى الله إليه أن يذهب إلى كشتاسب (أو يوشتاسف كما يسميه العرب) ملك إيران حينئذ ليبلغه رسالة ربه لعله يتذكر أو يخشى. فصدع بما أمر به، وشخص إلى عاصمة الملك ببلخ، ودعا الملك إلى الدخول في دينه، بعد أن وقفه على أصوله، وتلا عليه آيات من كتابه المقدس الذي أوحي إليه به. فتأثر الملك بما سمع ورق قلبه لهذا الدين وإن كان لم يدخل فيه، وأنزل زرادشت منزلاً كريماً، وأحاطه بحفاوة عظيمة، وأعد لإقامته جناحاً خاصاً في قصره زوده بفاخر الأثاث والرياش

والخدم والأتباع. ويروي الطبري وابن الأثير وغيرهما من مؤرخي العرب أن المجوس يزعمون أنه نزل على الملك كشتاسب من سقف إيوانه وبيده كبة من نار يلعب بها ولا تحرقه.

وقد أثارت حفاوة الملك بزرادشت حسد كثير من رجال الحاشية والمقربين للملك، فأخذوا يتآمرون على زرادشت، ويسعون ضده بالوشاية، ويدبرون له المكايد، ويتربصون به الدوائر. ولكن انتهى الأمر بعد محن كثيرة أصابت زرادشت بانتصاره على أعدائه وإقامة الحجة عليهم وإثبات نبوته بظهور معجزات كثيرة على يديه وإبرائه لأمراض وعاهات يعجز الطب العادي عن شفائها. فمن ذلك شفاؤه لجواد الملك كشتاسب. فقد كان لهذا الملك جواد أسود يحبه ويعتز به، وأصابه مرض تقلصت من جرائه قوائمه الأربع جميعاً ودخلت في بطنه ولم يظهر منها إلا أطرافها؛ وعجز جميع بياطرة الدولة عن علاجه. فأشير إلى الملك أن يعرضه على زرادشت، وكان حينئذ سجيناً. فأخرجه من السجن وطلب إليه أن يدعو ربه أن يبرئ الجواد من مرضه، فاشترط زرادشت لذلك أربعة شروط، وهي: أن يؤمن الملك والملكة برسالته؛ وأن يعلن الملك الحرب على الطورانيين، ويكون ولي العهد على رأس جيشه؛ وأن يعاقب من تسببوا في سجن زرادشت عقاباً صارماً. فقبل الملك شروطه، وكان كلما حقق شرطاً منها توجه زرادشت بالدعاء إلى ربه فتخرج إحدى قوائم الجواد من بطنه، وهكذا حتى خرجت قوائمه كلها، وعاد كأن لم يكن قد أصابه شيء من قبل. ومن ذلك أيضاً أنه أعاد البصر إلى أعمى من بلدة الدينور بأن وصف له حشيشة وطلب أن يعصر ماءها في عينه فأبصر[1].

فآمن الملك والملكة وولي العهد وتبعهم رجال الحاشية والجيش والخاصة. وكان في مقدمة من اعتنقوا الدين الجديد من حاشية الملك رجلان قدر لهما أن يكونا الحواريين

(1) من الطريف أن الشهرستاني لا يسلم بأن هذه معجزة، بل يرى أنها خاصة من خواص الحشائش التي عصر ماؤها، فيقول: «وهذا من جملة معرفته بخاصة الحشيش وليس من المعجزات في شيء»!! مع أنه من الواضح أن الرابطة بين الحشيش والإبصار في هذا الحادث ـ إن صحت هذه القصة ـ ليست على ما يظهر رابطة سبب بمسبب، بل مجرد مصاحبة اتفاقية، كضرب قتيل بني إسرائيل بجزء من البقرة المذبوحة وبعثه إلى الحياة بعد هذه الضربة. ولو أن شخصاً آخر غير زرادشت وصف هذا الإجراء ما أدى إلى هذه النتيجة.

العظيمين المخلصين للزرادشتيه، المجاهدين في سبيل نشرها والدفاع عنها وهما «جاماسب» وزير الملك ونجيه «وفراشا أوسترا» وزير الملك الثاني. وقد رأى زرادشت أن يوثق الصلة بينه وبين حاشية الملك بإيجاد رابطة نسب بينه وبين هذين الحواريين. فزوج أخته من «جاماسب» وتزوج هو من أخت «فراشا أوسترا». فحين انضمت رابطة النسب إلى رابطة الدين توثقت العلاقة بين زرادشت ووزيري الملك. ولا ريب أن هذا كان من أسباب سرعة انتشار الزرادشتية»[1].

وأخذ الناس بعد ذلك يدخلون في هذا الدين أفواجاً، ولم تمض بضع سنين حتى اعتنق الزرادشتية معظم أهل إيران، بل يقال إنه قد دخل في هذا الدين كثير من أهل البلاد المجاورة لإيران، وخاصة بعض بلاد من الهند، بل يقال إنه انتشر كذلك في بعض بلاد اليونان نفسها.

وشن كشتاسب ورجال دولته حرباً دينية لا هوادة فيها على مخالفيهم في العقيدة. فاضطر فريق ممن لم يؤمنوا بزرادشت ودعوته إلى الهجرة عبر جبال هندوكوش ونزلوا أرض البنجاب، وبقي الفريق الآخر بإيران نفسها محتملين آثار الاضطهاد[2]. ولم تصبح الزرادشتية ديانة رسمية للدولة إلا أيام الساسانيين في القرن الثالث الميلادي.

ولكنها على الرغم من ذلك لم تكن عقيدة الإيرانيين عامة؛ بل كانت تقوم إلى جانبها وتتصارع معها عقائد شتى تعتنقها أقليات من الإيرانيين؛ ومن أهم هذه العقائد اليهودية والبوذية والنصرانية والمانوية والمزدكية. ثم جاء الإسلام فدخل فيه معظم أهل إيران ولم يبق على الزرادشتية إلا نفر قليل هاجر بعضهم إلى بلاد الهند ولا تزال منهم في الوقت الحاضر طائفة في بومباي تعرف بالفرسيين وتتمسك بهذا الدين إلى يومنا هذا، وبقيت فئة منهم في فارس تقيم شعائر دينها وتوقد النار في المعابد في كثير من الولايات الفارسية. وعاشت هذه الفئة مع الأقليات الدينية الأخرى في أمان واطمئنان في ظل المسلمين. ثم أخذ أتباع الزرادشتية في إيران يتناقص عددهم شيئاً فشيئاً منذ القرن الثالث الهجري حتى أوشكوا على الانقراض ولم يبق منهم في العصر الحاضر إلا عدد قليل.

---

(1) حامد عبد القادر، زرادشت الحكيم، ص57.

(2) أمين عبد المجيد، القصة في الأدب الفارسي، ص16.

هذا، وقد قضى زرادشت نحبه حوالي 583 قبل الميلاد على أرجح الأقوال وهو في نحو السابعة والسبعين في أحد الهياكل المقدسة في بلخ. ومات قتيلاً وهو يقوم على خدمة النار في أثناء غارة الطورانيين على بلاد إيران. فقد وصلوا إلى بلخ بينما كان زرادشت وثمانون من كبار الكهنة يقدمون الوقود للنار في هيكل هذه المدينة، فهجم عليهم الأعداء وطعنوهم بسيوفهم، فخر الجميع صرعى، وسالت دماؤهم فلطخت جدران موقد النار، وامتدت إلى النار المقدسة نفسها فأخمدتها.

الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية «الأبستاق»

يطلق على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية اسم «الأبستاق» وهو تعريب لكلمة «الأفستا» Avesta (ومعناها الأساس أو الأصل أو المتن أو السند). والمقرر في هذه الديانة أن الأبستاق موحى به من الإله المسمى عندهم «أهورا مزدا» وليس من وضع زرادشت.

وكان الأبستاق يشتمل على واحد وعشرين سفراً، وكان مجموع الفصول التي تشتمل عليها هذه الأسفار ألفُ فصل. ويحوي تفصيلاً لعقائد الديانة الزرادشتية وعباداتها وشرائعها وتاريخها وما اجتازته من مراحل وتاريخ نبيها زرادشت من قبل رسالته ومن بعدها.

ويقال: إنه سُجِّلَ على اثني عشر ألف جلد من جلود البقر أو الثيران أو المعز[1]، وأنه كتب حفراً في الجلد ونقشاً بالذهب. وفي هذا يقول المسعودي في «مروج الذهب»: «إن الأبستاق كتب في اثني عشر ألف مجلد بالذهب، فيه وعد ووعيد وأمر ونهي وغير ذلك من الشرائع والعبادات»[2].

(1) يرى صديقنا المرحوم الأستاذ العلامة حامد عبد القادر في كتابه القيم «زرادشت الحكيم» أن رواية كتابته على جلود المعز هي أصح الروايات وأكثر اتفاقاً مع العبارة الفارسية (انظر «زرادشت الحكيم»، ص55).

(2) أمين عبد المجيد، المرجع السابق، ص31.

وقد فقدت جميع نسخ الأبستاق بعد غزو الاسكندر لفارس سنة 330 قبل الميلاد وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التي كانت تشتمل على شيء من أجزائه. والراجح أن اليونانيين قد تعمدوا إعدامها لما عرف عنهم من الاعتزاز بحضارتهم وعدائهم لحضارة الفرس وثقافتهم، ولما طبعوا عليه من ميل للانتقام من الإيرانيين، ومجازاتهم على ما فعلوا بالآثار اليونانية إبّان انتصارهم على اليونان قبل الإسكندر. ومن ثم يوصف الإسكندر في الأساطير الزرادشتية بأنه: «الرومي الملعون الذي يستهويه الشيطان فيخرب البلاد ويسفك دماء الأبرياء ويحرق برسبوليس عاصمة فارس ويقضي على كتب الزرادشتية المقدسة المدونة على اثنتي عشر ألف قطعة من جلود المعز؛ وأنه لذلك سيذهب إلى الجحيم بعد أن يقضي على نفسه بنفسه»[1].

وظلت بعد ذلك نصوص الأبستاق أو بعضها في حوافظ الموابذة (كبار رجال الدين عند الفرس) والفقهاء يتناقلونها ويتناقلها الناس عنهم مشافهة. فلابد أن يكون قد دخلها من جراء ذلك كثير من التحريف والتغيير والزيادة، وأن يكون حظ كبير منها قد عدت عليه عادة النسيان.

وفي النصف الأخير من القرن الأول الميلادي (51 ـ 87) شرع فولوجبس الأول Vologes (بلاش الأول) ملك فارس من الأسرة البارثية في تدوين ما بقي من حوافظ الناس من الأبستاق. وأكمل عمله هذا في القرن الثالث الميلادي الملك أزدشير مؤسس الدولة الساسانية. وبلغ ما تم تدوينه في هذين العهدين واحداً وعشرين سفراً تشتمل على 348 ثلثمائة وأربعين فصلاً من فصول الأبستاق التي كانت تبلغ ألف فصل كما قدمنا، أي أنه قد فقد منه نحو الثلثين، هذا إلى ما اعتور الفصول المدونة من نقص وزيادة وتحريف وتغيير عن أصولها نتيجة لتقادم العهد بها وتناقلها مدة طويلة عن طريق المشافهة كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وكما فقد الأبستاق القديم الأصلي، فقد كذلك هذا الأبستاق الذي دوّن من حوافظ الناس في عهد البارثين والساسانيين. وجاء في أثناء ذلك الإسلام واعتنقه معظم

(1) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص67.

الإيرانيين، ولم يبق على الزرادشتية إلا أقليات ضئيلة لا يؤبه لها. وكان من جراء ذلك أن نسي الإيرانيون معظم ما يتصل بالأبستاق، ولم يبق منه في ذكرياتهم إلا رواسب قليلة يتناقلها الخلف عن السلف. ومن هذه الرواسب دوّن المؤرخون في هذه العصور، ومنهم القدامى من مؤرخي العرب، جميع ما كتبوه عن الديانة الزرادشتية.

وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي عثر أحد علماء الآثار الفرنسيين وهو العلامة دوبرون Duperron، في أثناء بحثه في مكتبة بودليان بمدينة أكسفورد Bodlienne[1]، على قسم من الأبستاق الذي دون في عهد البارثيين والساسانيين، فقام بنشره وترجمته؛ وترجم بعد ذلك إلى كثير من اللغات الحية. وهذا القسم هو كل ما وصل إلينا وما نعرفه عن الأبستاق. وهو يشتمل على خمسة أسفار لا تكاد تتجاوز في مجموع فصولها ربع الأبستاق الذي دون في عهد البارثيين والساسانيين.

وهذه الأسفار هي:

1 ـ سفر اليسنا Yasan (ومعناها العبادة أو التسبيح). ويشتمل على أدعية وصلوات كان يتوجه بها إلى الله وإلى الملائكة والكائنات المقدسة وإشارات إلى تاريخ الدعوة الزرادشتية في مراحلها الأولى.

ومن بين فصول اليسنا سبعة عشر فصلاً تعرف باسم «الحاتها»[2] وهي أقدم أجزاء الأبستاق وأكثرها قداسة. ويسوق الباحثون عدة أدلة على أنها أقدم ما ألف من فصول الأبستاق جميعاً. ومن هذه الأدلة أنها هي وحدها التي كتبت في الأصل باللهجة الميدية، وهي لهجة المنطقة التي ولد فيها زرادشت، فكانت إذن أول لغة استخدمها في حديثه وتأليفه، قبل أن يهاجر إلى بختر في شرق إيران ويأخذ عن أهلها لغتهم، وهي اللغة التي كتب بها في الأصل ما عدا ألحاتها من أسفار الأبستاق.

---

(1) هي مكتبة من أشهر مكتبات العالم، تشمل على أكثر من نصف مليون مجلد وعلى ثلاثين ألف مخطوط، وقد أنشأها توماس بودلي Thomas Bodley من رجال السياسة الإنجليز فنسبت إليه.

(2) «ها» علامة الجمع، فهي جمع «حات»، وهي القطعة التي تتخلل النصوص المنثورة.

وفيما يلي بعض نصوص من اليسنا ترجمها بشيء من التصرف المرحوم الأستاذ حامد عبد القادر في كتابه عن «زرادشت الحكيم»:

«النجدة لهذا الإنسان، النجدة له مهما يكن أمره. ليتفضل عليّ الخالق الأكبر، والحاكم الأعظم، الرب الحي...

إني أتوسل إليك أهورا أن تحمي حمى الهداية، وعسى أن تتفضل عليّ بها. أنت يا من يبعث في النفوس التقوى التي لها من العظمة ما لها. فهي النعمة المقدسة، وهي حياة العقول الطيبة الصالحة. إني أتصورك أيها المعطي الأكبر فرداً جميلاً حينما أشاهد أنك القوة العليا (ذات الأثر الفعال) في تطور الحياة وحينما أرى أنك تكافئ الناس على الأعمال والأقوال. لقد كتبت الشر عقاباً على الشر، وجعلت السعادة جزاء وفاقاً لمن يفعل الخير، وذلك بفضلك العظيم الذي يظهر أثره حينما تتبدل الخليقة التبدل النهائي».

ويتحدث زرادشت في هذا السفر عن تاريخ الدعوة الزرادشتية في مراحلها الأولى:

«مزدا أهورا إني أتوسل إلى بركاتك وكرمك وعدلك أن تكافئ من كانوا السابقين الأولين المسارعين إلى الدخول في دين أهورا.. وأن تجزيهم الجزاء الذي وعَدَ به زرادشت من يدخل في دينه ويحفظ عهده. إن الملك كشتاسب قد قبل العقيدة التي أوجدها مزدا أهورا. إنه قبل العهد (الكتاب المقدس) وأقر بحجته، كما تقبل الدعوة إلى طريق الكرم والإحسان، فليتم هذا وفق مشيئتك.. ولقد وعدني فراشا أو سترا أن يهب لي أخته الجميلة المحببة إلي (هي أخت فراشا أوسترا وزير الملك كشتاسب التي تزوجها زرادشت كما تقدمت الإشارة إلى ذلك). فتفضل أيها الملك العظيم أن تهديها الصراط المستقيم، حتى تدرك تمام الإدراك معنى السلوك القويم فتصلح به نفسها. وقد تقبل جامسب (الوزير الأول للملك كشتاسب وقد تزوج بروجست أخت زرادشت كما تقدم) في تقوى وطهارة هذه العقيدة الكريمة العنصر. وكل من اشترك في إسداء الإحسان والاتصاف بالكرم فهو مخلص لهذه العقيدة خاضع لسلطانها، فتفضل بالإنعام عليهم حتى يجدوا فيك حصناً منيعاً يحميهم. وهذا الرجل متيوماه (هو ابن عم زرادشت الذي كان أسبق الناس إلى اعتناق الزرادشتية والذي شد الله

به أزر زرادشت كما سبقت الإشارة إلى ذلك) قد وضع هذه الطريقة الدينية نصب عينيه بعد أن أدركت روحه أسرارها. وكل من يدرك حقيقة الحياة وتتجلى له أسرار هذه الطريقة فسوف يوهب له العلم بمشيئة مزدا التي ترشد المؤمن إلى (إصلاح) شؤون حياته. ـ تفضل بالوفاء بما وعدت، فانشُرْ لواء بركاتك على كل من يقرون بأن الاستقامة في السلوك وإسداء المعروف ومزدا شيء واحد. وكذلك كل من يعبدك أنت يا أهورا ويسبحك ويوقرك»[1].

2 ـ سفر «الوسبرد» أو «الفسبرد» Visperd. وتشتمل على أدعية وصلوات مكملة لما في اليَسنا وترتل في مناسبات خاصة. ويبلغ عدد فصوله ثلاثة وعشرين أو سبعة وعشرين فصلاً.

3 ـ اليشتات أي الترنيمات أو المزامير Yashts وهي إحدى وعشرون ترنيمة تتلى في مدح الملائكة المشرفين على أيام الشهر. فقد كان يعتقد أن لكل يوم من أيام الشهر الثلاثين حامياً وحارساً من الملائكة. وكان يسمى اليوم باسم حاميه وحارسه. وكان لكل ملك ترنيمة دينية خاصة تتلى باسمه. فلابد أن يكون عدد هذه اليشتات في الأصل ثلاثين وأن يكون قد فقد منها تسع يشتات.

ويذكر البيروني في كتابه «الجماهِر في معرفة الجواهر» في صدد هذه اليشتات أنه كان للملوك الساسانيين سبحة من الدر الثمين عدد حباتها واحد وعشرون بعدد اليشتات، وكانوا يسمونها «نسك شمارة» أي عدد الأسفار، لأنها بعدد كتبهم المعروفة بالأبستاق[2]. ـ فبحسب هذه الرواية يكون عدد اليَشتات في الأصل واحداً وعشرين فقط، وتكون الحكمة في الوقوف عند هذا العدد هو مطابقته لعدد أسفار الأبستاق.

---

(1) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص71 ـ 73.

(2) يتكلم البيروني في هذا الكتاب على المعادن الثمينة والأحجار الكريمة. وقد عرض لليَشْتات بمناسبة الكلام على هذه السبحة المؤلفة من حبات الدر الثمين. انظر أمين عبد المجيد المرجع السابق، ص35، والتعليق الأول.

وقد كانت اليشتات نظماً،ثم شرحت نثراً، وتداخلت شروحها في المتن الأصلي فاختلط نظمها بالنثر، فاضطربت أوزانها.

4 ـ الخوردة أفستا أي الأبستاق الصغير، وهو سفر جامع لأدعية وصلوات خاصة بكل وقت من اليوم وبالأيام المباركة من الشهر والأعياد الدينية في العام وأوقات الصحة والمرض التي تعرض في الحياة. ويشتمل كذلك على بعض أحكام العبادات والزواج والزفاف.

5 ـ الوانديداد أو الفانديدا Vendidad أي القانون المضاد للشياطين. ويتألف من اثنين وعشرين فصلاً يعرض أولها للأمور نفسها التي تعرض لها الإصحاحات الأولى من سفر التكوين، وهي خلق العالم والسماوات والأرض، فيتحدث عما خلقه الله من الأراضي الطيبة المباركة واحدة بعد أخرى، وعما أوجدته قوى الشر (أنكره مينو) من الأرواح الخبيثة. وتعرض بقية فصوله للنظم التي يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتيين (وهو في هذه الفصول يشبه سفر اللاويين في العهد القديم) ولبيان العقائد والشرائع الزرادشتية المتعلقة بالموت والزواج وما إليه من نظم الأسرة ومشكلات الحياة الاجتماعية والنجاسة والغسل والطهارة وغسل الموتى وتطهير الملابس والبدن والصحة والمرض، والقسم وحفظ العهود ونقضها.. وما إلى ذلك. ومن ثم يعد أهم مرجع للوقوف على محتويات الديانة الزرادشتية وتفاصيل شرائعها.

شروح الأبستاق

ترجع شروح الأبستاق وشروح شروحه إلى ثلاث مجموعات يطلق عليها اسم «الزند» Zend و«البازند» pa-Zend و«الإيباردة». ـ وقد فقد معظم الشروح ولم يصل إلينا منها إلاّ القليل:

1 ـ أما «الزند» فهو الشرح المباشر للأبستاق، وقد دون باللغة الفهلوية، وهي اللغة الفارسية في مراحلها الوسطى (وتختلف عن اللغة التي دون بها الأبستاق، وهي الفارسية في مراحلها القديمة). وهذا دليل على أنه قد ألف في عصر متأخر بأمد طويل عن العصر الذي ألف فيه الأبستاق لأول مرة. والراجح أنه بدئ في تدوينه في عصر

فلوجيسس الأول (بلاش الأول 51 ـ 87م) حينما بدئ في جمع الأبستاق وتدوينه للمرة الثانية[1]، والراجح كذلك أنه لم يتم تدوينه إلا في أواخر عهد بني ساسان، أي حوالي منتصف القرن السادس الميلادي.

هذا، وكان كثير من قدامى الزرادشتيين يعتقدون أن الأبستاق والزند كليهما نزل من السماء، بل لقد كان بعضهم يخلط بين الكتابين فيزعم أن الزند هو الكتاب الأصلي لزرادشت، ومن هؤلاء صاحب كتاب «برهان قاطع» إذ يقول: «الزند كتاب كان إبراهيم زرادشت يدّعي أنه نزل عليه من السماء، ويقول بعضهم إنه صحف إبراهيم»[2]، ومنهم كذلك الأسدي في كتابه «لغت فرس» إذ يقول: «الأبستاق تفسير الزند، وهو أنه شرح للأبستاق، يذهبون إلى أنه من عمل زرادشت نفسه. وقد جارى المسعودي أصحاب هذا الرأي إذ يقول: «... ثم عمل زرادشت للأبستاق تفسيراً عند عجزهم عن فهمه وسموا التفسير زندا».

وبعض المتزمتين من الزرادشتين كانوا يتمسكون بالأبستاق وحده ولا يعترفون بالزند ويعتبرون من يعول على هذا الشرح خارجاً على أصول الشريعة ويسمونه «زنديا». ولعل كلمة زنديق المستعملة في لغتنا العربية معربة عن هذا الأصل الفارسي. وإلى هذا الرأي ذهب المسعودي في كتابه «مروج الذهب» إذ يقول: «وذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بن سبتمان بكتابهم المعروف بالنستا (الأفستا) باللغة الأولى (القديمة) من الفارسية، وعمل له التفسير وهو الزند... وكان الزند بالتأويل غير المقدم المنزل، وكان من أورد في شريعتهم شيئاً غير المنزل الذي هو النستا (الأفستا) وعدل إلى التأويل الذي هو الزند قالوا هذا زندي، فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل. فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس، وقالوا زنديق وعربوه»[3].

---

(1) انظر صفحة 152.

(2) أمين عبد المجيد، المرجع السابق، ص36 ـ 72.

(3) مروج الذهب على هامش نفح الطيب الجزء الأول، ص287 وما بعدها. نقلاً عن حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص65.

2 ـ وأما «البازند» فهو تفسير للزند، أي شرح لشرح الأبستاق. وقد كتب باللغة الفهلوية في مراحلها التالية للفتح العربي حوالي القرنين الثاني والثالث الهجريين أي حوالي السابع والثامن الميلاديين على الأرجح.

وكان بعض الزرادشتين يعتقد أن البازند من عمل زرادشت نفسه. وقد جارى المسعودي أصحاب هذا الرأي إذ يقول: «... ثم عمل زرادشت للتفسير تفسيراً وسماه بازند».

3 ـ وأما الإياردة بكسر الهمزة وفتح الراء وكسرها وفتح الدال فهو شرح للبازند، أي شرح لشرح الشرح أو تفسير لتفسير التفسير. وإلى هذا يشير المسعودي إذ يقول: «... ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيراً لتفسير التفسير وشرحاً لسائر ما ذكرناه وسموا هذا التفسير ياردة».

العقيدة في أسفار الزرادشتيين

كانت الديانة الزرادشتية في أصلها ديانة توحيد وتدعو إلى عبادة إله واحد هو «أهورا مزدا» وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكواكب وقوى الطبيعة، وكانت جميع أدعيتها وصلواتها وآيات أسفارها تتجه إلى هذا الإله وحده، كما يظهر ذلك من التأمل في النصوص التي نقلناها عن سفر «اليسنا»[1] والتي تصفه بصفات القدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم والمخالفة للحوادث، وأنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، ويعلم حقيقة ما في السماوات والأرض ولا يصل أحد إلى معرفة حقيقته، فأهورا مزدا يطلق في الأبستاق على الذات المتصفة بهذه الصفات. بل إن اسم «أهورا مزدا» نفسه يدل معناه في الفارسية على ذلك، «فهو مركب من ثلاث كلمات وهي (أهو) و(را) و(مزدا) ومعناها على الترتيب: أنا ـ الوجود ـ خالق، أي أنا وحدي خالق الوجود أو الكون»[2].

---

(1) انظر صفحات 158 ـ 160.

(2) حامد عبد القادر، المرجع السابق، 80 ـ 81.

وفي هذا يقول العلامة ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (جزء أول ص92): «وقد نقلت كواف (جمع كافة) المجوس الآيات المعجزات عن زرادشت كالصُّفر (النحاس) الذي أفرغ وهو مذاب على صدره فلم يضره، وقوائم الفرس التي غاصت في بطنه فأخرجها وغير ذلك. وممن قال إن المجوس أهل كتاب: عليٌّ بن أبي طالب وحذيفة وسعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أهل الظاهر. ويكفي من ذلك صحة أخذ الرسول الجزية منهم، وقد حرم الله في نص القرآن في سورة براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابي».

غير أنه قد دخل الديانة الزرادشتية فيما بعد كثير من التحريف والتبديل، فانتهى بها الأمر في عصورها الأخيرة إلى أن أصبحت ديانة مثنوية أو ثنوية أي تعتقد بوجود إلهين: أحدهما «أهورا مزدا» وتجعله إلهاً للخير، والآخر «أهريمان» وتجعله إلهاً للشر، وتعتقد أن بينهما صراعاً دائماً لأن كليهما يرمي إلى السيطرة على العالم، مع أن «أهريمان» هذا ـ وهو في الأصل «أنكره مينو» ومعناه الخبث أو الشر ـ لا يذكر في الأسفار المقدسة للزرادشتيِّن في مقابل «أهورا مزدا» على أنه شريك له، ولكنه يذكر في مقابل «سبنتامينو» ومعناه القدسية أو الخيرية. فلم يكن في أصل العقيدة الزرادشتية إلهان، وإنما كان فيها قوتان متضادتان أو مجموعتان من القوى المتضادة: أحداهما مجموعة قوى الخير والنور والحياة والحق، ويرمز إليها جميعاً «سبنتامينو» ويعمل على تحقيق أغراضها سبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبع العليا وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والإخلاص والأمانة والكرم؛ والأخرى قوى الشر والظلام والموت والخداع، ويرمز إليها جميعاً «أنكره مينو»، الذي تحوّل اسمه إلى أهريمان، ويقوم على تحقيق مقاصدها الآثمة سبعة شياطين خبيثة تمثل الرذائل الإنسانية الرئيسية وهي النفاق والخديعة والخيانة والجبن والبخل والظلم وإزهاق الأرواح[1].

وكلتا المجموعتين من القوى والدوافع مع توابعهما وملحقاتهما كانت خاضعة للإله الواحد المسيطر على كل شيء في الوجود وهو «أهورا مزدا». وقد يكون العلامة الشهرستاني في مقدمة المدركين لحقيقة الديانة الزرادشتية في نشأتِها الأولى وأنها كانت ديانة

(1) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص83.

توحيد، وذلك إذ يقول في كتابه «الملل والنحل»: «وكان دين زرادشت عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث»، وإذ يقول في موضع آخر: «وقال زرادشت إن البارئ تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما هو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند»[1].

ولما كانت ذات «أهورا مزدا» روحانية خالصة مجردة من شوائب المادة لا تدركها الأبصار ولا تحيط بكنهها العقول، ولما كان كثير من الناس لا يستطيعون الإيمان بذات هذا شأنها إلا إذا رمز إليها برموز مادية يستطيعون تصورها، فقد رمزت الديانة الزرادشتية إلى الذات العلية برمزين ماديين مشاهدين تقوى عقول الجماهير على إدراكهما، ويشتمل كلاهما على بعض مظاهر من صفات الخالق، فيستطيع الناس بالتأمل في صفاتهما تصور شيء من صفات أهورا مزدا على وجه التقريب والتمثيل، وهذا الرمزان أحدهما سماوي وهو الشمس والآخر أرضي وهو النار. فكلاهما عنصر متلألئ مضيء ظاهر مطهر لا يتطرق إليه الخبث ولا الفساد، وتتوقف عليه الكائنات. وهذه الصفات تشبه طائفة من صفات الخالق نفسه وترمز إليها.

ومن ثم حرصت الديانة الزرادشتية على أن يوقد في كل هيكل من هياكلها شعلة من النار، وأن تظل هذه الشعلة متوهجة مضيئة، يتعهدها الموابذة (كبار رجال الدين) والهرابذة[2] (صغار رجال الدين) ورجال الكهنوت، فيقدمون لها خمس مرات في اليوم وقوداً من خشب الصندل وما إليه من الأعشاب والمواد العطرية فيمتلئ الهيكل بعرفها الطيب وريحها الزكي، وترتل حولها الأدعية وتقام الصلوات. وكان من عادة الزرادشتيين إذا أقاموا هيكلاً جديداً للنار أن يحملوا إليه من كافة النواحي شعلات موقدة، وأن يبالغوا في تطهير هذه الشعلات، فيقتبسوا من الشعلة الأولى شعلة ثانية ومن الثانية ثالثة وهكذا حتى يصلوا إلى التاسعة فيعتقدوا أنها وصلت إلى أرقى درجات الطهارة، فيوقدوا بها نار الهيكل الجديد[3].

---

(1) الملل والنحل للشهرستاني، الجزء الأول، ص237 طبعة مصطفى الحلبي.

(2) الهرابذة بالراء جمع هربذ (بكسر الهاء والباء) وهو خادم النار.

(3) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص86، 87.

وقد بالغ الزرادشتيون في تقديس نار الهيكل فأوجبوا على رجل الدين أن يتلثم عند اقترابه من النار خشية أن يصل زفيره إليها فيلوثها. وكان عليه أن يتذكر حينها يدنو من هذه القوة الأرضية أن هذا النور الفياض إنما يرمز إلى أهورا مزدا[1].

غير أنه يظهر أنه قد دخل الديانة الزرادشتية فيما بعد التحريف والتبديل فيما يتعلق بتقديس النار، فانتهى بها الأمر في عصورها الأخيرة إلى أن أصبحت ديانة مجوسية يعبد أهلها النار لذاتها، بعد أن كانت مجرد رمز للإله، تشتمل على شيء من صفاته، وتقرب تصوره للأذهان.

وكان يشارك النار في صفة التقديس ثلاثة عناصر أخرى من العناصر الأرضية وهي التراب والهواء والماء، وإن كانت في مستوى أقل من مستوى النار.

وأما الكائنات الأخرى فقد كان من بينها في العقيدة الزرادشتية الطيب والخبيث. ويعرف كل نوع بعمله وآثاره. فالطيب ما حسنت أعماله والخبيث ما كان مصدر شر وضرر كالثعابين والعقارب وكل ضار من الحيوانات. والعناصر الخبيثة تظل خبيثة مادامت على قيد الحياة، فإذا ماتت طهرت وجاز اتصالها بالعناصر المقدسة، فيجوز دفنها في التراب وإلقاؤها في الماء. والعناصر الطيبة تظل طيبة ما دامت على قيد الحياة، فإذا فارقتها الحياة استحالت أجسامها إلى رجس ونجس فلا يجوز لمسها إلا بطقوس خاصة، ولا يجوز اتصالها بالعناصر المقدَّسة. ومن ثم كانت جثة الميت من الأناسي منجسة لكل من يقربها ولكلِّ طريقٍ تمرُّ بِهِ، ولا يجوز أن تدفن في باطن الأرض ولا تحرق بالنار ولا تلقى بالأنهار لأن التراب والنار والماء عناصر مقدسة لا يصح إلقاء نجس فيها. ولذلك أقيمتْ لجثث الموتى فوق قمم الجبال أبراج منعزلة عالية الجدران لا سقف لها يسمى كل برج منها «دخما»[2] Dekhuma أو برج الصمت، وتحمل إليها جثث الموتى نهاراً على نعوش من حديدٍ ثم تُلقى فيها طعاماً لجوارح الطيور. وكان كل من يلمس جثة ميت أو تلمسه جثة ميت يعد ملوثاً ولا يطهر إلا بعد طقوس دينية معقدة كل التعقيد. بل إن نجاسته هذه كانت تنتقل إلى كثيرين من المجاورين له وإلى

(1) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص87.

(2) ينطق بها في الفارسية بكسر الدال وسكون الخاء وإمالة الميم نحو الكسر.

غيرهم. فقد ورد في أسفار الأبستاق أنه إذا مات شخص وكان جالساً بجواره وقت موته شخص آخر، فإن هذا الشخص الآخر يصبح ملتبساً بجريمة ملامسة الميت (على الرغم من أنه لم يقصد هذا اللمس ولا أحدثه)، ويجب عليه أنْ يولّي مسرعاً حتى يصادف في طريقه أول رجل حي فيقف على بعد منه ويطلب إليه بصوت مرتفع أن يطهره من خطيئته بعد أن يظهره على مجمل ما حدث له، فيخاطبه قائلاً: «إنني قد لمست ميتاً لا حراك به ولا قدرة له على التفكير ولا على النطق وألتمس منك أن تطهرني»[1]. وورد في الأبستاق كذلك أنه إذا مات شخص بين جماعة متلاصقين فإن إثم الملامسة لجثة الميت لا يقتصر على المجاور له فحسب، وإنما ينتقل إلى عدة أفراد من المجتمعين. فإن كان الميت من رجال الدين انتقل إثم الملامسة من المجاور له إلى تسعة الأشخاص الذين يلونه، وإن كان من رجال الحرب انتقل من المجاور له إلى ثمانية الأشخاص الذين يلونه، وإن كان مزارعاً انتقل من المجاور له إلى سبعة الأشخاص الذين يلونه. وورد فيها كذلك أن المتلبس بهذا الإثم عن طريق الملامسة المباشرة أو عن طريق الانتقال يجب عليه أن يولّي مسرعاً حتى يصادف في طريقه أول رجل حي، فيقف على بعد منه ويطلب إليه بصوت مرتفع أن يطهره من خطيئته بالصيغة التي سبق نصها، فإن قام بإجراءات التطهير المعهودة طهر الملامس وأثيب المطهر على ما فعل.

وإن رفض تطهيره انتقل إليه ثلث الجرم. وفي هذه الحالة يجب على الملامس أن يوالي سعيه حتى يصادف رجلاً آخر فيطلب إليه ما طلبه إلى الأول، فإذا رفض تطهيره انتقل إليه نصف الباقي من الإثم (ثلث مجموع الإثم)، ثم يغادره إلى ثالث فإن رفض الثالث تطهيره انتقل إليه جميع ما بقي من الإثم (الثلث الباقي)[2].

وقد خصصت الزرادشتية طائفة معينة من الناس لإعداد جثث الموتى وحملها إلى برج الصمت كما كانوا يسمونه، وقررت أنه «لا يجوز أن يستقل شخص واحد من هذه الطائفة بهذا العمل، بل يجب أن يشاركه اثنان آخران يشهدان عليه، وعلى الثلاثة أن يتطهروا بعد الانتهاء من عملهم. ولا يجوز لهم مع ذلك أن يختلطوا بالناس. ومن

(1) انظر كتابنا في «المسؤولية والجزاء» الطبعة الثالثة، ص108 ـ 109.

(2) انظر كتابنا في «المسؤولية والجزاء»، ص112.

التقاليد الزرادشتية المترتبة على الاعتقاد بأن جثة الميت نجسة أنه إذا مرت جثة ميت بأحد الطرق العامة فإنه لا يجوز لأحد أن يسير فيه إلا بعد تطهيره. ومن وسائل تطهيره تلاوة دعاء آهونا أو دعاء كمتا مزدا Kemta mazda الذي يعد أشد الأدعية قداسة، وترجمته:

«مزدا من يستطيع أن يحمي شخصاً ضعيفاً فانياً مثلي حينما يستعد الكافرون للاعتداء علي؟! أي كائن آخر غيرك ـ بما لك من عقل وقوة نارية ـ يقوى نشاطه على تنفيذ مبدأ التقوى والاستقامة؟! مزدا! اكشف لي عن أسرار هذه المعرفة كي تساعدني على نشر دينك. من غيرك يقدر على لطم الأعداء، ويمدني بكلماتك الصادقة التي هي درعي والمجن الذي يحميني؟ دلني ـ مزدا ـ على قائد مخلص حكيم متلطف يقودني إليك، ثم اجعل زعيم ملائكتك المزود بالعقل الخير المستنير يدنو ممن تحب كائناً من كان. تفضل فاحمنا جميعاً من أعدائنا أيها المقدس مزدا. وهلاكاً لأدرج (أدرج أو دروج Druj هو رمز لقوى الشر مجتمعة ولإبليس) الشيطاني، وهلاكاً لجميع الشياطين، وهلاكاً لجميع أشياع الشياطين، الهلاك التام لك يا أدرج! اخسأ واذهب بعيداً عنا إلى الشمال حتى لا تعبث بخلق مزدا، المبدأ المقدس»[1].

وتوجب الديانة الزرادشتية الإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار على وجه لا يختلف كثيراً في جملته بل لا يختلف كثيراً في تفاصيله نفسها عما يقرره الإسلام. فتقرر عقائدهم أن الساعة ستقوم على أثر حادث فلكي. وذلك أن كوكباً يصطدم مع الأرض، فتميد بالناس، وتخر الجبال هدّا، وتذوب العناصر، ويصهر النحاس، ويسيل إلى جهنم، ويفنى أهريمان وأنصاره من الشياطين، ويغسل الناس في منصهر النحاس، ويجده الصالحون برداً وسلاماً. ثم بعد ذلك يجمع هرمز (أهورا مزدا) الخلائق، ويمدهم بحياة جديدة ويجازيهم بأعمالهم. وهذا فيما يتعلق بمن يكونون على قيد الحياة وقت قيام الساعة. أما الذين ماتوا قبل ذلك فتحاسب أرواحهم عقب موتهم مباشرة. وذلك أن الروح تحوم عقب الوفاة فوق الجسد ثلاثة أيام تشقى فيها أو تنعم

(1) حامد عبد القادر المرجع السابق، صفحتي 77، 78.

وفقاً لسيرة صاحبها في الحياة: إن خيراً فخيراً؛ وإن شراً فشر. وفي اليوم الرابع تهب من الجنوب على الروح الصالحة ريح طيبة تتضوع بالمسك وتلتقي روح الميت عند أول الصراط (بل جنوات)، أي جسر المفارقة المضروب فوق جهنم، بفتاة بيضاء الذراعين منقطعة النظير في جمالها فتسألها من أنت فتقول: أيها الشاب الطيب السريرة الطيب القول الطيب العمل (يلاحظ أن قوام الأخلاق عند زرادشت كما سيأتي بيان ذلك في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل ثلاثة أمور. الفكر الطيب، والكلم الطيب، والعمل الطيب) أنا وجدانك وضميرك، كنت محبوبة فزدت الناس محبة فيّ، وكنت جميلة فزدتني جمالاً، ورفعت من شأني بفكرك الصالح وقولك الطيب وعملك المبرور. ثم تمضي الروح بإرشاد هذه الفتاة وهدايتها إلى حضرة أهورا مزدا، فتعبر الصراط إلى الجنة حيث يستقبلها ملك جالس على كرسي من ذهب عند باب الجنة فيفتح بابها ويقول لصاحبها ادخل سالماً آمناً وتمتع بحياة هنيئة. أما روح الشقي فتلتقي بمخلوق بشع المنظر نتن الرائحة، ولا تستطيع العبور على الصراط فتهوي في دركات النيران. وجنة زرادشت تقع أقصى شرقي جبال البرز (هرابيرازيتي Haraberasiti) ويرتفع الجيل متجاوزاً النجوم إلى عالم النور اللانهائي ويصل إلى جنة أهورا مزدا في منزل النغم وهو أم الجبال، وقمته سابحة في العزة الأبدية حيث لا ليل ولا برد ولا مَرَض[1]. وتذكر بعض الأسفار المقدسة لدى المتأخرين من الزرادشتيين أن الروح بعد أن تعبر صراط الحساب «تحتل إحدى منازل ثلاث: منزلة الأشقياء في جهنم دار الجحيم، ومنزلة السعداء في الجنة فردوس النعيم، ومنزلة وسطى بين هؤلاء وهؤلاء. فمن ثقلت موازينه ورجحت حسناته سيئاته احتلت روحه المنزلة الثانية؛ ومن خفت موازينه ورجحت سيئاته حسناته ذهبت روحه إلى المنزلة الأولى؛ ومن تساوت حسناته وسيئاته احتلت روحه المنزلة الثالثة»[2].

---

(1) أمين عبد المجيد، المرجع السابق، ص22، نقلاً عن دكتور محمد معين: «مزديسنا وتأثير آن در أدبيات فارسي» ص24 وما بعدها.

(2) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص92.

العبادات والشرائع والأخلاق
في أسفار الزرادشتيين

1 - العبادات:

من أهم العبادات في الديانة الزرادشتية تقديس النار على النحو الذي سبق شرحه، والأدعية التي يتجه بها إلى الإله والملائكة والأرواح المقدسة، وتختم كل صلاة منها بعظات يلقيها رجال الدين على المصلين ليبينوا لهم معالم دينهم ويرشدوهم إلى طرق الخير والفضيلة ويحذروهم من المعاصي وتعدّي حدود الله. وتقام واحدة من هذه الصلوات عند بزوغ الشمس، وواحدة عند الزوال، وواحدة عند الغروب، وتقام الصلاتان المكملتان للخمس بين هذه الصلوات الثلاث. والصلاة في الزرادشتية دعاء يوجه إلى أهورا مزدا، وترجمته ما يلي: «أرجو منك أيها الرب الخالق المطلق القدير أن تغفر لي ما ارتكبت من سيئات وما دار بخلدي من تفكير سيئ وما صدر عني من قول أو عمل غير صالح. إلهي أرجو منك أن تباعد بيني وبين الخطايا حتى أحشر يوم الدين مع الأطهار الأخيار»[1].

وكان الزرادشتي مقيّداً بعدة طقوس وعبادات في كثير من شؤون حياته الخاصة كالأكل والنوم والاستيقاظ وإضاءة المصابيح. وكان عليه أن يُبقي نار الموقد في داره مشتعلة لا تخبو، وألا يسمح لضوء الشمس أن يقع على النار، ولا للماء أن يلقى على النار، ولا ليده أن تمس جثة ميت، أو جسد امرأة حائض، وألا يلوث الماء، وألا يتكلم ولا يبكي في أثناء الطعام. وكان عليه إذا أشكل عليه أمر من أمور الدين أن يرجع إلى رجال الدين وكان الزرادشتيّون يذهبون إلى هياكل النور في أيّام أعيادهم الرئيسية ليقيموا الصلوات ويبتهلوا إلى أهورا مزدا بالدعوات، وبخاصة يوم التوبة، وهو عيد النيروز. ففي هذا اليوم يفعل الزرادشتيون مثل ما يفعل المسلمون يوم عيد الفطر مثلاً، فيتزاورون للتهنئة بالعيد الجديد، ويستيقظ الواحد منهم من نومه مبكراً فيستحم ويلبس ملابسه الجديدة، ويبتهل إلى الإله بالدعاء أن يغفر له ولأهله سيئاتهم التي اقترفوها في العام المنصرم. ثم يذهب إلى هيكل النار فيجتمع هو وإخوانه هناك، ويستأنف معهم الدعاء، ويطلب من الإله الرحمة

---

(1) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص91، 92.

والرضوان، ثم يتصدق على الفقراء والمساكين. هذا في الأعياد. وأما في المآتم فكان من عاداتهم بعد إلقاءِ جثة الميت في برج الصمت أن يعزّى أهله ثلاثة أيام، وأن يقام في المساء السابق لليوم الرابع حفل ديني يحضره أهل الميت وأصدقاؤه، وأن توزع الصدقات رجاء أن يغفر الله له، وأن تجلس قريباته على مقربة من المكان الذي مات فيه على بساط يفرش على الأرض لتقبل العزاء من صديقاتهن، من ثلاثة أيام إلى عشرة بعد الوفاة»[1].

وليس في الديانة الزرادشتية رهبانية، بل إنها لتكره كل ما يؤدي إلى الخمول وإضعاف الجسم، ولذلك تنهى عن الصوم إلا في ظروف خاصة نادرة.

وكان يشرف على شؤون العبادات وما إليها من الشؤون الدينية طبقتان من رجال الدين. إحداهما طبقة الموابذة، ويسمى كل واحد منهم موبذان. وكانوا يتولون الوظائف الدينية العليا ويرأسهم الموبذان أي رئيس الموابذة، وكانت وظيفته تعد أرقى الوظائف الدينية جميعاً، وهو الذي يوجه رجال الدين على اختلاف درجاتهم ويوليهم ويعزلهم. ولم يكن نشاط الموابذة مقصوراً على الشؤون الدينية بل إنهم كانوا يمارسون كذلك شؤون الطب والقضاء والتعليم ويشتركون في إدارة الشؤون السياسية للدولة وفي شؤون التشريع والتنفيذ. ومن ثم كان لهم سلطان كبير حتى على الملوك أنفسهم. فقد كان زرادشت نفسه موجهاً سياسياً للملك كشتاسب، يرجع إليه في شؤون السياسة ويستمع إلى نصائحه. والطائفة الأخرى طائفة الهرابذة، وكانت منزلتهم دون منزلة الموابذة وكانوا يتولون إقامة الشعائر الدينية في هياكل النار[2].

2 - الشرائع:

تحث الشريعة الزرادشتية على العمل والسعي في مناكب الأرض لكسب الرزق وإنتاج الثروة، وخاصة الإنتاج الزراعي وتربية الماشية. فمن نصوصها المقدسة أن من يشق الأرض بمحراثه خير ممن يقدم ألفاً من القرابين وممن يقدم عشرة آلاف من الأدعية والصلوات. وتحث على النظافة والقضاء على الحيوانات المؤذية والهوام، وتضع على كاهل الفرد واجبات نحو نفسه وجسمه وأفراد أسرته وأفراد مجتمعه والإنسانية جمعاء، وتوجب

---

(1) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص97، 98.

(2) المرجع السابق، ص98.

صيانة النفس والمحافظة على الصحة، وتحرم الانتحار تحريماً باتاً، لأنه جناية على النفس والوطن، وتجعل الزواج واجباً على كل قادر عليه، وتحث على تعدد الزوجات ليكثر النسل ويزداد عدد الجنود المحاربين في سبيل النور.

وقد ورد في الأبستاق أن أهورا مزدا قد أوحى إلى زرادشت أن «المتزوج أعلى منزلة من الأعزب ولو كان نقياً عفيفاً، وأن من له بيت (أسرة وزوجة) أعلى منزلة عند الله ممن ليس له بيت، وأن من له خلف أعلى منزلة ممن ليس له خلف»[1].

وكانت أكبر كارثة تحل بالرجل عند الزرادشتيين ألا تكون له ذرية. وكانوا يعتقدون أن من يدركه الموت من قبل أن ينجب أولاداً لا يلج باب الجنة، وأن أول سؤال يلقيه خزنة الجنة على من يقف ببابها هو سؤاله عما إذا كان قد ترك في الدنيا من يخلفه، فإن أجاب بالنفي حيل بينه وبين دخولها، إذ لا يدخلها إلا من ترك من بعده خلفاً يخلد اسمه ويقدم لروحه ما تقرر الشريعة تقديمه من صلوات وقرابين، وأن أشهى فانجوهي Asi Vanguhi (وهي لديهم رمز العفة ومصدر الخير والبركة والنماء) لا تقبل قرباناً يقدمه إليها العقيم من الناس، وأن أكبر جرم يرتكبه الأفراد الرؤساء هو أن يعضلوا الفتيات عن الزواج، ويحولوا بذلك بينهن وبين إنجاب الأولاد[2].

وتشبهُ أسفار الأبستاق وشروحها أسفار اليهود في استيعابها لجميع فروع الشريعة؛ فهي لا تغادر أي فرع من فروع الحياة الفردية والاجتماعية إلا وضعت له قواعد يسير عليها حتى شؤون الأكل والشرب وحلق الشعر وتقليم الأظافر. ومن الغريب أن سفر «الونديداد»[3] يضع في صدد قلامات الأظافر والشعور تعاليم واحتياطيات تشبه ما يعتقده الآن كثير من العامة في مصر وغيرها، فيذكر أنه من الواجب على الإنسان أن يضع قلامات أظافره وقصاصات شعره على منضدة أمامه، ويحرص عليها كل الحرص حتى لا يضيع منها شيء، ثم يحملها بعناية ويخفيها في حفرة عميقة، وإلا كانت عرضة لأن تمتد إليها أيدي السحرة والمشعوذين فيستخدمونها في سحر صاحبها.

---

(1) V. Westermarek: Idées Morales (trad. Fr.) T. II. 386.

(2) انظر كتابنا «قصة الزواج والعزوبة في العالم»، ص10.

(3) انظر الفقرة الثالثة من هذا الفصل.

وتدل هذه التعاليم على تأثر الزرادشتية بعقيدة قديمة مؤداها أن شعر الشخص وأظافره تتجمع فيها جميع صفاته الشخصية. ولذلك كان التأثير فيها بخير أو شر وسيلة للتأثير في الشخص نفسه[1].

هذا، وفي كثير من الأمور السابق ذكرها وما إليها يختلط التشريع في شؤون الحياة الدنيا بالعبادة التي يُقصدُ بها وجه الله والدار الآخرة، فيكون الشيء الواحد شريعة وعبادة في آن واحد.

3 - الأخلاق:

تدعو الديانة الزرادشتية إلى الفضائل نفسها التي يدعو إليها الإسلام وتنهى عما ينهى عنه من مظاهر الرذائل والفحشاء والمنكر والبغي.

وقوام الأخلاق عند زرادشت ثلاثة أمور: الفكر الطيب، والكلم الطيب، والعمل الطيب. وكان لا يقبل دخول أحد في الدين الزرادشتي إلا بعد أن يؤخذ عليه بهذه الأمور ميثاق مدوّن صيغته في الأبستاق وينتهي بالعبارة الآتية:

«لن أقدم على سلب أو نهب أو تدمير أو تخريب. أقر أني أعبد أهورا مزدا، وأعتنق دين زرادشت، وألتزم التفكير في الخير والكلم الطيب والعمل الصالح»[2].

---

(1) حامد عبد القادر، المرجع السابق، ص73، 74.

(2) حامد عبد القادر، المرجع السابق.